

فيليبو مارينتي



المركز القومي للترجمة

سحر مصر

ترجمة: مها محمد عبد العزيز
مراجعة: سهيمة سليم صالح



2480





بعد مرور سنوات وسنوات من الحيوية والإبداع عدت إلى نقطة ثابتة
من التأمل: إلى مسقط رأسى مصر.
فمنذ زمن كانت تنادينى سماها المكتظة بشذرات الذهب الناعمة
وتلاحق كئيبانها الصفراء الساكنة وأهراماتها الشامخة المثلثة الأمرة
ونخيلها الوديع الذى يبارك أباه النيل الخصب الذى يجرى فى أخدود
تربة سوداء وكلاً أخضر.
كان اسم السفينة "حلوان" وتمايلها يستدعى إيقاع الرمال المبحر
الخافت، وأجنحة طواحين "الماكس" المنسوجة الضخمة التى كانت تقى
ألعاب طفولتى من حرارة الشمس.
وباتت حرارة البحر والجو معتدلة عذبة كما لو اختلجت فيهما وجنات
الصبايا الدافئة. تمزقت مشاعرى، وصرت الجرح الغائر الذى يفكر
فى إغواء قوس الأفق البحرى بالشذرات الحارة.



سحر مصر

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2480
- سحر مصر
- فيليبو مارينيتي
- مها محمد عبد العزيز
- سهيمة سليم صالح
- اللغة: الإيطالية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

Il fascino dell'Egitto

Filippo Tommaso Marinetti

Questa opera e' stata pubblicata con il contributo del Ministero
degli esteri Italiano.

تم نشر هذا العمل بمساهمة من وزارة الخارجية الإيطالية.



حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org

Tel: 27354524

Fax: 27354554

سحر مصر

تأليف : فيليبو مارينتي

ترجمة : مها محمد عبد العزيز

مراجعة : سهيمة سليم صالح



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

سحر مصر / مراجعة : سهيمة سليم صالح

ترجمة : مها محمد عبد العزيز

القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٦

٦٤ ص : ٢٤ سم

١- مصر - تاريخ

(مراجع)

(أ) صالح ، سهيمة سليم

(مترجم)

(ب) عبد العزيز، مها محمد

٩٦٢

(ج) العنوان

رقم الإيداع ٥٠٤٣ / ٢٠١٥

I.S.B.N. 977-92-0153-5 الترقيم الدولى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

7	(١) آخر شذرات الحنين لشاعر مستقبلية
9	(٢) معبد رجال البحرية الإنجليزية العائم
10	(٣) الملك فؤاد
12	(٤) موسيقى الموسيقى الشرقية
14	(٥) سرعات إيطالية
16	(٦) جيش النخيل وجود بصورة جديدة
18	(٧) خواطر جاموسة
20	(٨) البحث عن طيور السمان ونساء عربيات بصحبة قواد عربى
29	(٩) محاوره هادئة فى أثناء تناول الطعام على ظهر الذهبية
31	(١٠) آلية الدراويش المقدسة
33	(١١) بغال صاحب الجلالة القطن
35	(١٢) لمسات متناحرة للمواد الدهنية الخصبة والزجاجية العاقرة
36	(١٣) تفكير الصحراء الرفيع
37	(١٤) الهرم المتوهج ومساحة نضرة
39	(١٥) هرم للاكل
41	(١٦) فى نزهة مع أمى عند المرفأ القديم
43	(١٧) الشاعر اليونانى المصرى «كفافى»
46	(١٨) الموت المقهور وحركة «مع الموتى»
48	(١٩) برج حمام من أحذية القافلة
49	(٢٠) مدافع القلعة الإنجليزية
51	(٢١) فن المسرح بلا مسرح
53	(٢٢) تزامن إفريقى لطيار زنجى

(١)

آخر شذرات الحنين لمشاعر مستقبلية

بعد مرور سنوات وسنوات من الحيوية والإبداع عُدت إلى نقطة ثابتة من التأمل:
إلى مسقط رأسى مصر.

فمنذ زمن كانت تتادبنى سماؤها المكتظة بشذرات الذهب الناعمة وتلاحق كُثبانها
الصفراء الساكنة وأهراماتها الشامخة المُثَلثة الأَمَرة ونخيلها الوديع الذى يبارك أباه
النيل الخصب الذى يجرى فى أخدود تربة سوداء وكلاً أخضر.

كان اسم السفينة "حلوان" وتمايلها يستدعى إيقاع الرمال المُبحر الخافت،
وأجنحة طواحين "الماكس" المنسوجة الضخمة التى كانت تقى ألعاب طفولتى من حرارة
الشمس.

وباتت حرارة البحر والجو معتدلة عذبة كما لو اختلجت فيها وجنات الصبايا
الدافئة. تمزقت مشاعرى، وصرتُ الجرح الغائر الذى يفكر فى إغواء قوس الأفق
البحرى بالشذرات الحارة.

ومن أن لآخر كنت أقبض برقق على شريط الذكريات الذى ينبض بالحياة فى
جسدى حتى لا أمزقه. كانت هناك رغبة شديدة فى الانطلاق غير معهودة أفقدت
ذكرياتى صوابها. وسرعان ما تحركت تلك الذكرى المُمتدة الوردية لمدرسة
"اليسوعيون الفرنسيون" وفنائها الهائل يحرسه النخيل، وتشابك مدولس يقان التلاميذ
العارية السريعة، وياقاتهم الشبيهة بزى رجال البحرية وقطع من الكرات كانت تغوص
فى فربوس مُدغل أخضر أشجاره من الدُلب والمنغوليا والخيزران.

ها هو احتفال "القلب المقدس" الذى يفوح عطره ويعلو رنينه يُبعث من جديد. كان المذبح يعج بزهور الياسمين ويختبئ بين أوراق شجرة "الباباب"^(١) التى تتساقط بتلات الورود من فوق جذعها.

وفى عصر يوم حارٍ من أيام شهر مايو أثار لهب الشموع وطنين المباخر الوامض ومسبوح الرهبان القرمزية المنطلقة نشوة طيور القمر التى اتخذت من فوق النخيل العالى عشاً لها.

وكان همس المياه الشهوانى يمتزج بأحاسيسنا الطفولية إلى أن يسبب لنا المتعة والألم.

كان شريط الذكريات شديد الطول و الموشى بدقة يحفل بالعبث العنيفة ... لعبة الحرب التى تتكون من جيشين من التلاميذ المسلحين بدرع من الحديد الزهر على شكل صليب وطلقات دموية لكراتٍ من الجلد المحشو، واليسوعيين المرحين البالغين زهاء ثلاثين عاما يقودون الهجمات والهجمات المضادة والمطاردات والمعارك الجامحة، وهم يتصببون عرقاً، أكماسهم مطوية ومسوحهم السوداء ترتفع على سيقانهم الطليقة.

(١) شجر ضخّم ينبت فى البلاد الحارة.

(٢)

معبد رجال البحرية الإنجليزية العائم

انجدل فى الوقت نفسه أمام عيون أحلامى خيط آخر من خيوط الحنين إلى الأقارب، إنها سنارة أخى "ليونه" مغمورة فى المياه المثقلة بدياجير ظلام ميناء الإسكندرية أسفل حزمة أشعة غارقة بيضاء من شعاع مغيب الشمس. كان أخى يصطاد وأنا كنت أحلم وأنا كاره للصيد والخادم السودانى بجلبابه الأبيض يعد الطعم.

كان قاربنا الصغير يصطدم بين الحين والحين بعارضة معبد رجال البحرية العائم رباعية الشكل والمائل لونها إلى الرمادى، ولم تكشف لنا البتة جفون هؤلاء البحارة المتراخية - فى كثير من العصارى - عما إذا كانوا ملاحين أم نساكًا.

شريحة أخرى من ذكرياتى تحمل رائحة لازعة معسولة وفاسدة لأشجار "الطلح" التى كانت تفوح من أسياخ الشى فى حديقة "أنطونيادس" لتثير مياه ترعة "المحمودية" الطاهرة الضريرة، وجواميسها سوداء اللون أعلى قمة حظائر البقر وروث جمل.

وعلى بُعد عشرة أميال من الإسكندرية، كان المركب يتهادى الهوينى، وكان تموج البحر الزئبقى المائل إلى الزرقة يصعد ويهبط فى ميزان حرارة النافذة الصغيرة.

واكتسى الأفق البحرى فى سحر رائع بالنخيل الذى تزينت به مقدمة مركبنا عند نزوله. وعند صعوده كان طرفه يختفى عن يسار الأبخنة التى كانت تتسلق الغروب الملبد بالغيوم. ومن جهة اليمين، كان البحر يمنح كل حين مقدمة المركب كُثبان الرملية رمادية اللون، والتى كانت أشعة الشمس المتساقطة من أسفل فتحات السُحب تضيئ عليها بياضاً وعذوبة.

(٣)

الملك فؤاد

وبعد ساعة وفي حديقة فيلا "أمبرون" المظلمة أصهرت روحى مع شجرة
فيكاس" اللينة الكبيرة التى تغرس أوراقها الباكية فى الأرض ذكريات خضراء، تتوق
لأن تنبت مرة أخرى ذكريات جديدة خضراء ظاهرة جلية.

فى اليوم التالى وينفس الإيقاع الهادئ الثابت وفى البلاط الملكى بالقاهرة
أطلعنى الملك "فؤاد" على تطور مصر السريع المنظم.

وبينما كنت أنصت إليه كنت أفكر فى القيمة الإسلامية للطربوش الذى ألغاه
كمال" باشا فى "تركييا" باعتباره مولدا لحالات نفسية سلفية.

من بين كل أعطية الرأس فإن الطربوش هو أقلهم احتمالاً من حيث الاتسام
بخصائص قتالية أو ملكية. تنوب خطوط طربوش الملك "فؤاد" المنحدرة فى انحناءات
وجناته الحسية لوجه بيضاوى مثالى.

ويبتسم الفم المتعرج أسفل شوارب مفتولة إلى أعلى ويذكرنا بالسلطين على
صهوة الخيل أسفل قوسى السيف والقمر.

ووقف يفتخر بحركات مالك أفدنته، ولكن بنون المظلة المميزة المصنوعة من الحرير
الرمادى بالمدينة البحرية الجديدة التى تضاعفت أحيائها المتلائة بالمرمر والبللور
والكهرباء النيون حتى غابة النخيل فى منطقة "فيكتوريا"، وبحى "الماكس" الذى حطم
طواحين الرياح واستبدلها بالبخار للطحن، وبالبحيرات المستصلحة، وبالأسواق
الناخرة بالأقمشة والمجوهرات ومحلات الحلويات التى أزالته السرعة الميكانيكية

وباللامبالاة المُتناهية للعرب راكبي الترام وكأنه اختطفهم من البحر، وبالتدافع العنيد للروائح والألوان والمذاق والعبق والعفن، والتي تستبسل في الدفاع عن نفسها ضد الحداثة الأوربية في سوق القاهرة.

كنتُ أقول لنفسي: لن أعود أتذوق بشراة سنوات عمرى الخمس عشرة محارى
غض اللب الطازج بين الكبائن الزرقاء الخشبية المائلة لمبنى حمامات الرمل الصغير
الذى يرتجف مع كل موجة على الأوتاد الحديدية. لن تشاهد عيناى ولن يشم أنفى بعد
ذلك البحر البلورى الأخضر الجميل شديد الملوحة، حيث قذف فيه أبى وبوحشية
جسدى النحيل الطفولى حتى يعلمنى ازدراء أطواق النجاة.

(٤)

موسيقى الموسيقى الشرقية

وفجأة تغيرت نبرات صوت الملك "فؤاد"، ربما استشعر الصراع المأساوى الذى كان يدور فى عروقى بين ذلك الماضى الذى ينتحب والمستقبل العظيم الذى كان يخنقه. استعادت حركات صاحب الجلالة الرشيقة وصوته رحابة الوقار المسلم؛ لتجمع كل الحنين المتناثر.

حضرَت اليوم حفلاً موسيقياً مُمْتَعاً. وفى الشتاء القادم سوف أنظّم هنا فى القاهرة أول مؤتمر كبير للموسيقى العربية وسوف أترأسه بنفسى. سندعو كل مؤلفى الموسيقى وكل الموسيقيين المتجولين ومرتجلى الأناشيد الإسلامية وبصحبهم ألاتهم. سوف نناقش الطريقة المثلى لتطوير الإبداع الموسيقى لعرقنا العربى، مع الحفاظ على التقاليد الفنية القديمة بالإضافة إلى خلق أصول إبداعية جديدة.

بينما كان الملك "فؤاد" يتحدث، كانت يدها تبحثان برقة أنثوية فى الهواء عن أصداء مفقودة لأغاني الأيام الخوالى الشجية وعن أصوات المؤننين الشاردة وحُداة الإبل والرعاة والبحارة. كان بالتأكيد يريد أن يصهرهم جميعاً فى نسيج مُتَنَاطِم على أن يكون فنياً وسياسياً معاً. ألم يكن من الممكن عن طريق الموسيقى العربية الموحية إغراء وسلب ألباب أوروبا الطامعة المُسلحة القاسية التى كانت تتعطف بولع شديد على مصر الغنية المُتأملّة؟

من المؤكد أن لازمة غنائية مصرية عذبة تنطلق كزفرة أولى من ثغر مُغلق، ثم ترتفع من صوت أنفى تعس، ثم تتوقف وتُسْتَأْنَف عشرين مرة، من المؤكد أنها تستطيع

أن تحرك المشاعر وأخيراً تضع حلاً لمشكلة قناة السويس الصعبة المعقدة والتي يكاد يعرقلها كم أوراق عصبية الأمم الهائل.

على الرغم من اهتمامه اليومي، باعتباره ملكاً حكيماً، بمكافحة تجارة الكوكايين التي تحاول تخدير قواه الغالية، فهو يحلم أن يكبح جماح طموحات شعبه بالفن، هذا الشعب الذي إن كان قد تخلص عن كل شيء فمن الممكن حالياً أن يمزق كل شيء بشراسة، وربما بعنف مدمر.

(٥)

سرعات إيطالية

أضاف الملك "فؤاد":

إن الجالية الإيطالية مذهلة لذكائها ودأبها وسرعتها!

أثارت هذه الجملة فجأة فى قلبى الحالم ذكرى حياة أبى الصلبة... إنه واحد من أوائل المحامين الذين جاؤا منذ ٦٠ عاما إلى مدينة الإسكندرية وكانت موحلة لا غاز بها ولا مياه صالحة للشرب، وكان يمر بها كل ليلة حاملا المصباح اليدوى لينجز القضايا باللغة التعقيد للباشوات ذوى الكروش الذين كانوا يطلقون عليه "قلقل" لذكائه وعمله وسرعته.

وختم الملك "فؤاد" حديثه قائلاً:

أشعر بحب الابن تجاه القصر الملكى "كازا دى سافويا". كانت الملكة "مارجريت" بمثابة أم حقيقية لى. أه يا مدينتى الجميلة "تورينو"! تربطنى علاقة صداقة وطيدة بوزير خارجيتكم "جراندى"، تلميذ الزعيم موسولبنى عن جدارة!

عندئذ، وفى جو الخطاب المضجر والنخيل والكتبان الرملية والأهرامات والقرى العربية يظهر جليا وبصورة مذهلة مشهد الوطن الفخور الضاحك، شبه الجزيرة المتلهف للإبحار، الذى دخلته بأكمله الكهزياء بناءً على أوامر الرئيس ويحماس ملاحيتها الذين لا يكلّون.

استقلت القطار فى اليوم التالى للذهاب إلى الإسكندرية مسلحاً بمجاسات الذكريات. أول ذكرى تهشمت بين يدى كلعبة قديمة وهشة هى ذكرى مدرسة

"اليسوعيون الفرنسيون" (القديس فرانسوا كسافيه)، والتي تحولت الآن إلى هيئة
حراسة المحافظة!

أسرعت بالسيارة حتى سور حديقة "أنطونيادس" وأنا يحدوني الشغف لأنزع
عن نفسي آخر شعور بالحنين. وأخذت أشعة شمس تلك الظهيرة الواهنة لشهر
ديسمبر المصرى تحاول وتعيد محاولة مُداعبة جلدى المُستقبلى بمُداعبات غاية فى
الرقّة، ولكن شجر "طلع" مراهقتى المُتوقد الحسى كان قد اختفى! دخلت إلى منخارى
بدلاً منه رائحة قوية من القطران الذى كان يأتى من ناحية عارضة هيكل القارب الذى
كان يرزخ تحت ثقل حمولة من القطن. واقتحم مخى هذا القطران من الإرادة
والرحلات والأخطار والمروء والمغامرات وأرغمنى على أن أرفع رأسى.

بعيداً عن نخيل الزينة "الكاميروس" فى حديقة "أنطونيادس" الساحرة، جاء أمر
عال من النخيل ذى الخصلة المعدنية ليدل طائرة الخدمات البريدية الإيطالية على
مسارها بشكل هندسى.

وحلقت الآلة من فوقى وسمعت لها صوتا كطنين النحل الحربى الذى يئن بعناد،
أصابت موسيقى ناي الحرب الأسود السماء الزرقاء بجروح، حيث كانت أجنحة
الطائرة هى نفسها أيدى الموسيقار المبتورة بعد أن تركته على الأرض وأقلعت.

(١)

جيش النخيل يجود بصور جديدة

وبعد أن تحدثت إلى الملك "فؤاد" تحدثت إلى النخيل والنيل والبراويش التي تلف حول نفسها رافعة التنورة إلى أعلى، صورة وافية من الناحية الوجدانية والتشكيلية والموسيقية والصوتية.

وقد قام السيد "جراس"، وهو واحد من أولئك الإيطاليين الذين يسيطرون على الشرق بذكائهم الحاد ذى النزعة التبسيطية، بمنحني السرعة الملائمة حتى أتجنب الحنين المضجر لتلك الشخصيات اللامعة التي أجريت معهم الحديث.

وفى الحافلة من الإسكندرية إلى القاهرة استعرضت قبائل وشعوباً وجيوشاً من النخيل تظهر بجذوعها شبه الأدمية والتي تظل دائماً من الطبيعة النباتية وتفرض نفسها كأسياد السهل. تحكمه. فى مجموعات غير منظمة. وكتائب مُسرعة، وحُرّاس وفلاسفة تخمرهم حالة من العزلة التأملية.

كان هناك أركان حرب من النخيل يقود معركة خفية. ومجموعة أخرى تعبد الشمس وتترقب بجريدها اليابس أمطاراً من الذهب.

كانت تسير فى الأفق كقطعان من الأفيال. وسألت نخلة عجوز مُنحنية من الأعمال الزراعية الشاقة. ولم تجبني.

وكان قطارى ينزلق على أرض مصر الخصبة المنبسطة الخضراء.

كانت القرى بلونها المائل للأسود والرمادى من أثر الوحل والبقر والقش وروث الجمل المُجفف تحت أشعة الشمس بمثابة قشرتها الخارجية وزوائدها. والجاموس

الداكن هو ثأليلها . وكانت الأرض تبو وكأنها تسحق كل شيء وتلصقه بصدرها :
منازل صغيرة حقيرة وقطارات وسواقٍ ومياهٍ راكدة ومراكبٍ شراعية فى مياهٍ بطيئة
أسفل سماءٍ ممتدةٍ وخاليةٍ وربما يستعمرها ذات يوم النيل الناقم بحركة سريعة.

(٧)

خواطـر جاموسـة

كلص طريد، أخذ القطار يلامس مزارع الموز التي تموج بالزمرد الحى وتنديها
حليات من ذهب. وتشهر القنواتُ عاليًا أشـرعة على شكل أقواس تبدو كالسواطير.
كانت انحناءات الإبل والفلاحين فى انسجام تام مع انحناءات القرى المتخمة
بالسهول.

وامتلا إيقاع القطار بالتراب المشحم. وهدأت عربة القطار من وثبات قلبى،
وعندما تأرجحت أوقعته بين الذباب وداخل نفس رطب لبقرة مُحْتَظرة تخرج رأسها
مثل سلحفاة كبيرة من قوقعة السهل الشاسعة الطينية لتحرس قطيعاً ثملاً من المقابر
العربية البيضاء.

قالت الجاموسة وهى تلوك:

أنا ابنة الأرض السوداء والنيل الرمادى، أبـدو وأنا مُسترخية وكأئننى كومة من
رغام، أنحت فوقه هيئة جسدى فى أثناء نهوضى، وسرعان ما استكمل كل من ظهري
وقرنى الصورة الجانبية للأسطح المنخفضة التى تعج بالقش، والأطفال، والخرق
البالية، والماعز الصغير، وقياب الأقران، ومواسير من الفخار دون دخان. أحب
السكون الممتد على بُعد خطوات قليلة من القضبان والطريق. لا أرفع خيشومى عند
مرور الفلاح الجالس جانباً فوق الجمل المتـموج، يحدق فى دون أن يرانى، فالهدف
المنشود لا يستحق نظرة منه، ولا القرية التى يفوح عبقها قويا خلف ظهره.

لن أبتنفس مطلقاً من جديد هواء غنياً بالجراثيم مثل هوائي! فالرغام المتبخر هو منشأ الهواء. يضغط على الوجنات كقطعة إسفنجة دافئة.. وأخذت الجلايب فضية اللون التي تكنس الطرق السوداء أو خضرة المراعى اللامعة تعطر السماء بيخور الأرض الطيبة!.

وفى هذه الأثناء توقدت السماء الزرقاء وظهرت سحب صغيرة متفرقة من الفضة فى توهج مستمر ومعلقة فوق آلهة غير مرئية. وشعرنا بهاجس المياه. وبقلق الضوء. وببريق الحصى المتعطش.

(٨)

البحث عن طيور السمان ونساء عربيات بصحبة قواد عربي

"كفر الزيات" ! هذا الاسم ينزعُ بضراوةٍ روحى من واقع عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثلاثين ويغمسها فى سنوات عمرى العشرين التى تظهر فيها ألوان السعادة الرقيقة المبهمة.

منذ ثلاثين عاماً، كانت رائحة المومياء تفوح من الظلام عند توقف القطار فى محطة "كفر الزيات"، كان سقيف المحطة الضخى يتدثر بأشجار الموز ويطل على شاطئ النيل غير المرئى.

كان فى انتظارنا محمد الرجل، قواد الضابط أركان حرب الإنجليزى الذى أوصانى به وبحرارة بالغة سير "وارد"، كان فى انتظارنا ليصبحنا إلى ملتقى الصيد و... ليمنحنا شرف القرية الشهوانى.

مازلت أراه مُجدداً فى ذاكرتى، كما لو كان شيئاً حدث بالأمس، صاحب مُجامل ينحنى احتراماً، ويمد إلينا يده ليحيينا، يقرب أصابعنا برشاقة إلى فمه، ويصدر أوامره فى غطرسة وتكبر للصبيين السوداويين اللذين يحملان المؤن.

لقد فتننا جميعاً منذ اللحظة الأولى ذلك الفتوة الكبير، طليق الحركة ذو الوجه الجذاب بلون الشيكولاتة، وعيناه سوداوان واسعتان، نكيتان ووديعتان، وأنفه معقوف.

كان محمد يسبقنا بخطى واسعة، وكانت خصلة طريوشه تتراقص وهو يرشدنا إلى الطريق بحركة مهيبة.

كان مظهره نبيلاً إلى حدٍ كبير في جلبابه المتطاير المصنوع من قماش الكريب الأسود، تعلوه سترة شبه مفتوحة متناسقة من الحرير ذات أقلام أصفر كنارى وأخضر فستقى.

كنا عشرة صيادين مولعين. ثلاثة يونانيين وخمسة إنجليز وإيطاليين، تغمر الجميع الرغبة في قتل مائة سمانة على الأقل، بعيداً عن الإسكندرية التي أصبحت غير صالحة للسكنى بسبب عيد الأضحى.

ظهرت لنا بادی ذی بدء أكواخ مكعبة الشكل على جانبي الطريق، أكواخ تكاد تكون مبنية بالكامل من طين النيل المائل للصفرة تحوطها حدائق صغيرة. ثم تبرز جانباً عبر الأفق غابات صغيرة من النخيل.

كان فجرا حزينا، متعباً غير واهم. وقرية قاتمة اللون يخيم عليها صمت الموت. وفي هدوء ارتسمت السماء بخطوط فضية مائلة للخضرة. ويظهر وراء الحقول المزروعة رمال مموجة اصطبغت بعذوبة بلون البنفسج مع دعابات القمر الأقل. قمر دافئ رخو بلون الصدا الأصفر كان يأفل كقطرة ذهب نحو البحر البعيد.

واختنق الطريق بمزارع الموز وشعرنا بنضارة البساتين المعطرة تندى أجسادنا بعذوبة.

كسرت شحوب السماء خيمة بعض البدو ظهرت عن بُعد كخفاش ضخم ذی أجنحة غشائية تفتش الأرض وتتسمر بها.

لاحظت بفضول الشكل الهندسى العجيب لنسيج الخيمة المرقع، ولأطرافها البهلوانية الرثة الصدئة التي كانت تحركها رياح الصحراء مثل غاطس مركب قديم.

وأمام فتحة الخيمة سياج صغير من الأغصان وقطع من الصفيح، وبعض الماعز النحيف المقرنز يجر ضروعاً مترهلة متهدلة.

جرى نحونا كلب غاضب مكلى مسلوخ هزيل. تلك كانت خيمة عبد الله الرجل شقيق محمد. صاح مُرشدنا: سعيدة يا عبد الله. أجاب صوت من الداخل: سعيدة يا محمد.

وظهر عبد الله خلف السياج. كانت ملامحه جسورة قاسية: كان يلتحف معطفاً طويلاً من الصوف الأبيض فوق صدره، وكانت حركته مهيبه، وكان مظهره أنيقاً وفوضوياً في نفس الوقت. ودار بين الشقيقتين حوار طويل هامس لم أميز منه سوى اسم فاطمة الذي تكرر مرات عديدة.

لقد حدثني السير "وارد" كثيراً عن فاطمة، أجمل نساء الشرق كله، كما أنه حدثني عن زوجها، مصطفى البار، فهو صياد ماهر، حكم عليه البؤس والفيرة أن يمارس مهنة هزيلة بائسة على دهبية النيل. كان يقال إن هذا الأخير كان العدو اللدود لمحمد بسبب بعض الحكايات التي لم أعد أتذكرها.

ألقينا التحية على عبد الله، وأستأنفنا السير في القرية الموحشة عبر الطريق الذي صار رملياً.

ووجدنا في طريقنا هيكل جمل في حالة مُزينة.

وفي حوالي الساعة السادسة وصلنا إلى مجموعة من النخيل المُصطف على الشاطئ، وراح البحر الرمادي يتلون تدريجياً بلون الورد.

وانتظرنا ونحن نجلس على مقاعدنا الصغيرة القابلة للطى وكل منا يبعد عن الآخر بمسافة عشرة أمتار، وقد اتفقنا على أن نصوب فقط في اتجاه البحر، حيث يوشك السمان على الوصول.

أخذ محمد يحفر حفرة كبيرة وساقاه يتقاطعان في الرمال. كان يريد أن يجعلني أتبين حرارة الشمس المركزة تحت الأرض.

وفي الساعة السادسة والنصف سمعنا حفيف أجنحة... وهوت أمامنا أول أسراب السمان، التي اندفعت كطلقات البندقية... كان الإعياء قد أنهكها.

فشلت الطلقات الأولى. لم تكن الرؤية واضحة بالقدر الكافي. في الفترة الفاصلة ما بين طيران وآخر كان محمد يهز ساقيه بشكل يثير الفضول على مسافة قصيرة مني، وكان يعلق سماناً وهمياً بعضاً طويلة ويطلق شفثيه وهو يصيح: شوف! شوف! بام! بام! بام!

كان يأخذ على عاتقه أعباء بطولية، أو ضعيفة بأزيز طموح وخوار من المتعة.
استمرينا فى الصيد حتى الساعة التاسعة... وجاء بعض الصغار شبه عرايا
وقدموا لنا سلالا صغيرة مملوءة بالتين الطازج الطو مقابل بعض العملات الصغيرة.
وأشرقت الشمس تصعد... وهاج الذباب وانتشر مع ارتفاع حرارتها. وبدأت
الرمال فى ذلك الوقت وكئنها رماد. وراح محمد يصنع لنا بمهارة مراوح من سعف
النخيل، ثم بدأ يحكى لنا حكايات خرافية للكاتب الفرنسى "لافونتان".
مازلت أتذكر نحيبه وحركاته الصبيانية الغريبة وهو يقلد الحيوانات.

عند العودة سرنا بمحاذاة النيل، الذى يجرى بلمسه الدهنى ولونه الضارب
للأصفرار بين شواطئ مُلبدة بالخضرة. واكتشفت بشيء من الدهشة كرمة، نمت فى
الرمال بين أشجار التين الملتوية، وأشجار النخيل الصغيرة. شرح لى محمد أن عنب
هذا النبات حلو المذاق؛ بسبب المواد العضوية التى تخزنها التربة من بواقي المحار.
تجمعت ظلال النخيل: فقد انتصف النهار. ولحنا القرية. ظهر الحشد الصغير المهرول
من الأكواخ والبيوت الفقيرة مكعبة الشكل تنتشر هنا وهناك وتكتسى بفروع خضراء،
وبدت ساكنة مُتصلبة أسفل لهيب الشمس، كان المشهد مُنهكا كما لو كان قد انصهر
من شدة الحر.

وقادنا محمد عبر درج من الوحل حتى صهريج تحت الأرض به مياه عذبة
مائلة للزرقاء.

بينما كنا نصعد، مرت بجوارنا امرأة ترتدى ثوبا فيروزى اللون. كانت تصعد
الدرجات الصغيرة المنحدرة ببطء حاملة على رأسها سطلا أسود اللون وذراعاها
مرفوعتان لتسنده. كان فخذهاا يتموجان مع كل خطوة، وكان نهذاها الصغيران
المستديران المتماسكران يرتسمان أسفل رداها.

راحت تحدق فينا بمقلتيها الناعستين كالمطاط الأسود التى تكاد تغطى بياض
العين. وكانت تستر فمها قطعة من القماش الأسود، تتصل بخمار رأسها بواسطة
رباط يمر عبر أنبوبة صغيرة من النحاس مستندة على أنفها.

تابعنا المرأة. ولكن محمدا استوقفنا بإيماءة. وبحركات حذرة تحت أشعة الشمس الحارقة وبإصبعه على فمه، وعدنا بفاطمة الرائحة فى تلك الليلة نفسها، عندما يخرج زوجها ويبتعد عن البيت.

ولاحقتنى طوال اليوم عينا المرأة العربية الجميلة، تلكما العينان النديتان كعيون الغزلان، فى الأزقة الوعرة كريهة الرائحة، التى تعج بطنين الذباب الضخم الأخضر. أعترف أن امتهان فاطمة للدعارة كان يشغل تفكيرى. كنت أتوقع جداً مقرراً لثمن مضاجعة تافهة دفعت فيها بسخاء الأمراء.

أه... لو أننى كنت قد تمكنت من مقابلة الحسناء، أو لمحتها فى أية نافذة، فربما كنت قد استطعت تدبر الأمر بطريقة أكثر رومانسية!

لذلك كنت أستطلع فى أثناء سيرى الأبواب التى تشبه مداخل الكهوف، والتى كان ينبعث منها دخان يميل لونه إلى الاحمرار بسبب المقلبات المقرزة وروائح الغائط العفنة. وعلى حين غرة، بدا لى أننى لمحتها على عتبة بيت صغير مُنخفض للغاية لدرجة أن الدواجن كان يمكنها القفز من شرفته إلى قارعة الطريق.

لم تكن هى. كنتُ بمفردى، إذ إننى كنتُ قد انفصلت عن أصدقائى فى مُفترق الطرق الأخير، ما انفك قلقي يتزايد.

وفى ميدان صغير، كان بعض الموسيقيين المتجولين كفيفى البصر يؤججون سكون النيران وهم يندنون بغناء رتيبٍ يصحبه أنين المزمارة.

خرجت من القرية لأتأمل الغروب فوق الرمال بعد أن تناولت فى عجلة طعام الإفطار البشع فى أحد المقاهى اليونانية الصغيرة، واستسلمت بالفعل لفكرة عدم رؤية فاطمة قبل حلول الظلام الدامس.

استدعاني أصدقائى من أعلى إحدى الشرفات. كانوا فى بيت بعض أقارب محمد، وهذا الأخير كان يقدم لهم واجبات الضيافة - مع كثير من الانحناءات - كان يقدم، باحترام جمٍّ، مشروبات "كيو" الكحولية التى كانوا يحفظونها فى قربةٍ من جلد

الماعز المطلقى بالقار. وأمامنا فى الزقاق كانت رائحة الكحوليات والينسون وشراب
الأخسنتين تفوح من إحدى الحانات الصغيرة الهادئة.

ومرّ بعض الزوج ضخام الأجسام يرتدون ثياباً بيضاء، وعلى أذانهم تحت
العمائم باقات صغيرة من الياسمين. ومرّت بعض النسوة، كلهن متشحات بالخمار
وغامضات. حاولت أن أتبين فاطمة من بينهم!

كان أصدقائى يأكلون بعض الطويات الهشة التى تعبق برائحة الرمان والورد،
ويغمسونها فى عصير الليمون المحلى بالعسل والمملوء بالفسق.

أقبل الليل. وراحت شمس الأصيل تقذف حمما بركانية متأججة من وراء البيوت
الصغيرة المزدانة بالزهور. كانت الرمال تتلظى.

ثم ببطء شديد، أخذت ألسنة اللهب والألوان الأرجوانية تتوارى. واكتسى المشهد
بملس مخملى من الياقوت الأرجوانى، وسكنت الشمس وهى تأفل شذرات ذهبية
شهية جعلتنى أفكر فى منحل يتدفق منه العسل. وظهرت جزيرة بعيدة من الخضرة بين
الرمال المصقولة النفيسة كقطعة من الزمرد يحاوطها الذهب. انحنى محمد تجاه
الغرب واضعاً يده على جبهته ليطرد أرواح الليل الشريرة.

فى إحدى الشرفات، كان عجوز نو لحية بيضاء، يرتدى ثياباً زرقاء، يقف
مستقيماً متلاصق القدمين فوق حصيرة صغيرة، ومن حين إلى آخر كان ينحنى
إلى الأمام للركوع، ويسجد على ركبتيه، ووجهه إلى الأرض، أقام صلاته لله متجهاً
صوب الغرب.

صعدت كذلك بعض النسوة إلى الشرفات القريبة.

عندما بزغ القمر بخيوطه اللؤلؤية الندية فوق المنزل المقابل، أومأ محمد لى
بإشارة وغمز بعينيه، وتابعناه عبر القرية... أقحم أزهار البنفسج الصغيرة فى
منخاره، دليل البهجة.

توقفنا أمام أربعة منازل منفصلة ومُعوجة، وكانت شرفاتهم تتدرج فى فوضى
غريبة ممتعة. كانت تبدو وكأنها أربع ساحرات شمطاوات تعرجن فى الجبس، وقد
تجمدت حركاتهن مساء فى مجمع سرى مظلم شرير.

كان هناك فناء صغير فى مُنتصف تلك المنازل. ولج محمد فيما يشبه باباً أسود، وخرج منه بعد قليل تتبعه امرأة قصيرة القامة وسمينة، تخفى رأسها وقمها بالخمار. كان رداؤها فضفاضاً، ويمكن التنبؤ على مضمض بثدين طويلين متهدلين أسفله... إنها أم فاطمة. اقتربت منها... ورأيت خواتم من النحاس تصلصل حول كعبي قدميها ومعصمها.

بعد قليل، تناهت إلى مسامعنا من الداخل ثمة تمتمة... بعض النسوة تتبعهن شرذمة فى أسمال بالية أحاطن محمداً. جميعهن، كن يصحن ويلوحن، رافعات إلى السماء أذرع بلون القهوة باللبن، يغطيها وشم يميل لونه إلى الحمرة وأساور توسوس. كان النقاش يدور حول ثمن فاطمة.

جذبتُ محمداً إلى الداخل لأضع حدا لتلك المفاوضات. كان القمر فى عليائه يضىء بعنف الجدار الذى يفضى إلى الفناء. ولكن تبعتنا العائلة وبدأ النزاع من جديد. كان الوضع مُحزنًا وعجيبًا: فى هذا المشهد الفاخر الذى توشى فيه الظلال أطراف ضوء القمر كانت جلبية تلك العائلة شعثة الرأس تتشاجر بسبب ثمن فتاة من بيتهم. على شرط ألا يصل مصطفى زوجها فجأة! هذا ما ذكره لى محمد.

تم تحديد الثمن.

تركنا الأم وذهبت لتحضر ابنتها. تسلق محمد برشاقة درجات سلم صغير حتى وصل إلى أعلى شرفة من الشرفات الأربعة. كان يريد أن يراقب عودة الزوج المُحتملة. جلس مستقيماً باسماً كفه كالدرع فوق عينيه وراح يغنى بصوتٍ رتيب:

ترا لا لالا... لا لالا، جسدك عذب

جسدك كالموز شهى

جسدك مرمرى

كالقمر.

لكن القمر بارد

أما ثدياك فيشتعلان

تحت قبلاتي ترا لا لالا... لا لالا، جسدك عذب!

كان محمد يغنى منتصباً هناك فى موقعه المرتفع من القرية التى كانت تخذ إلى النوم وهى تبرك على ضفة النيل، وكان يتفحص النهر ومياهه الرحبة التى تنساب مُثاقلة. من هنا وهناك، كانت تلك المياه تبدو هنا وهناك كالمخمل الفاخر الذى تطبق جداول القمر الفضية على أطرافه.

لم يكن على سطح النيل ولا حتى قارب. كان القمر على حافة غمامة عالياً يبتسم بسخرية، وصفحته كوجه رذيل جامد، ذى عيون يحوطها الكحل الضارب إلى الزرقة. كانت السماء المتناغمة الفضية تتمايل على رأس محمد، كانت حميمة مصطنعة المظهر وتضامى سموات. فى بعض لوحات قديمة. وسمعنا حولنا طنين حشرات لا يوصف، وأنين أغنية بعيدة تتبعث من اتجاه النهر.

لا أتذكر على الإطلاق متعة خاصة منحتنى إياها فاطمة الحسنة. كانت كئى أنثى...

كان محمد لايزال يتغنى أسفل ضوء القمر :

ترا لا لالا... لا لالا، جسدك عذب!

كانت الحجرة قذرة، وطشت الاغتسال متشققا ويميل إلى الاصفرار!...

وذلك الباب اللعين الذى مابرح ينفتح باستمرار!...

ويقولون إننى كنت أتلّف كثيراً إلى تلك الملذات!...

ويغته، سمعت صوت بندقية، ثم صرخة تدمى القلوب فى ضوء القمر الخافت! (محمد لم يعد يغنى...)، وصوت ارتطام جسد ثقيل، فى طابق علوى، ربما فى الشرفة!...

أسرعت فى الخروج. كان الهرج والمرج لا يوصف فى الفناء.

كانت النسوة يصحن بصوت يمزق القلوب: مصطفى قتل محمداً! مصطفى قتل محمداً!

كانت شرزمة من الناس تنن وهي مذعورة. أفسحت لي طريقاً بضربات مرفقي
لأتسلق فوق السلم، وأصعد إلى أعلى شرفة. كان محمد مُمدداً ويطنه إلى الأرض
وسط بحرٍ من الدماء.

حاولت رفع الجثة. كان بارداً وثقيلاً للغاية. استحال عليّ نقله.

في الفناء، وقع أصدقائي فريسة للحيرة والاضطراب، لأن بعض العرب جاءوا
ليخبروهم أن مصطفى زوج فاطمة يريد أن يقتل الجميع.

ولكنه لم يقدم على قتل ضحية أخرى. فقد مرّ بجانبى حتى دون أن ينظر
إليّ. كان قد قتل محمداً لأن هذا الأخير لم يكن قد دفع له، في آخر مرة، أجرة
مُضاجعة فاطمة!...

ياله من مسكين محمد الرجل!

محاورة هادئة فى أثناء تناول الطعام على ظهر الذهبية

وأخيراً محطة كفر الزيات تكتنفها عربات الجر، والصخب، والجلابية، والعباية لتفصح لى عن رغد النيل المتعرج وتدفق مياهه الخضراء العكرة اللامعة التى تحمل السفن المسلحة بالسوارى الشامخة. مناقير طافية لطيور "الفلامينجو" الضخمة الغريقة. ها هو موكب صاحب الجلالة القطن المبحر فى بالاته الضخمة المغلفة بأختام الرصاص. فى مراكب ممتلئة ينزل النهر العظيم التجارى المصبوغ بلون التماسيح والجاموس وجوخ لندن البنى، ليعبر المياه ويتحول إلى ملابس أوربية.

يزينه ويطرزه تحليق الحمام الأبيض اللولبى. بدت الذهبية التى تقلنى كفيلاً صغيرة فيروزية اللون انزلت إلى الأسفل من شاطئ السُّبَّات. وتحت عارضة المركب المطلية بالقار همس النيل قائلاً:

"كنت تنعس ساكناً، فلتنعس الآن وأنت تبهر. وإذا كان إبحارى يبعث الضجر فسأمنحك درجات سلم ضفافى حتى ترقى إلى سلام السماء الموشى بأشعة الشمس الذهبية.

إنها درجات سلم غاية فى الطول نحتتها المياه فى "الحلوة" الرخوة الداكنة بفعل الرغام. ألقى الذهبية بالهلب فى حديقة "جزيرة".

على مائدة الطعام، ومع الأشربة القريبة البعيدة التى توجهها الأسراب البيضاء، احتسينا سائلاً مُمتزجاً بأشعة الشمس التى تنفذ من الواجهات الزجاجية المربعة. كان يقوم على خدمتنا زنوجٌ ذوو وجوه بلون الكربون أسكرتها أشعة الشمس، وكانوا يرتدون الجلابب الرائع ويتمنطقون بالأحزمة المتوهجة.

ويزين النيل الخلاب الذى يتسع نحو ٧٠٠ متر و ١٠٠٠ متر فى تلك المنطقة خلف الجزيرة، ودعانى الضباب الرمادى البعيد المُثقل بأطراف السوارى المصقولة اللامعة إلى السرعة ورحت أتابعه وأنا أرتشف قهوة تركى على متن القارب السريع.

فى تكاسلٍ مُتعرج رفع لى النهر الحُجُب عن الصحراء فيما وراء مهده وتربته السوداء وحشائشه الخضراء. كثبان رملية. صلابة صفراء من تناغم الرمال و تدافع الرياح، إنها تتصاعد، ويخفت إيقاع القيثاره فى صمت، ويرتفع نقر غاية فى العذوبة على الأوتار.

وإذا ما ثارت الرمال؟

يرفع النيل بحذرٍ شراعاً كبيراً ويكوره فى مواجهة الشمس وكأئه غلالة يحمى بها صفحة مياهه العذبة من رياح "السيمون".

وراحت سرعته تعجل من الارتفاع السحري للأشعة البيضاء الأخرى. هذا الشراع الذى يسير ببطء شديد، يبدو أنه صلاة النهر العابد الخصبة الطاهرة وهو مُستلقٍ. يفتح ذراعيه المنسوجتين. يتضخم من النشوى.

ويرتفع الشراع وهو واثق من تهدئة ضراوة الشمس، والوصول على الفور إلى سلام مُنعش متلاكئاً بالنجوم.

وعند الإبحار تحت الظلال، كان البحارة يغفون وهم مضجعون على حمولة الزورق الهرمية للجزء المُنغمر من السفينة فى المياه حتى حافتها. مقدمة القارب يقظة بفطرتها. وفى الخلف تأتى الدفة الطويلة السوداء عديمة الجدوى وكأنها ذنب من الطين.

ونسبح خريبر مياه النيل:

"أسمد بأناة الأرض صديقتى، ولكن وجنات فتاياتى المنسوجة تتضخم بفعل الرياح وتمتلئ بنفحة الله المقدسة المختلطة بالنجوم، ثم يعدن إرسالها داخل واجهات عرض صائغى السوق!"

آلية الدراويش المقدسة

وسرنا بحماس بمحاذاة أسوار القلعة المتدثرة بأردية حجرية عالية متعامدة بلون الصحراء، طبيّات حادة وفوهات سوداء من مدافع إنجليزية في فتحاتها.

عند سفح هضبة المقطم، وجدنا سلماً عبر بنا إلى أسفل حجرة مرصد قائد الدراويش. إنه فناء صغير من نبات الصنوبر والسرو الأغبر. دلفنا إلى الكهف الفسيح المنحوت في الحجر وأرجلنا معصوبة بالأقمشة. مقابر على اليمين ومقابر على اليسار. في نهاية الكهف، عند مربع من الحصير يحده سور من الحديد، كانت هناك ثلاث عربيات يتدثرن بالكامل بالسواد، يتمددن وأرجلهن تجاه المدخل، ويتدحرجن كأسطوانة حبر الطباعة ليتلطخن بحبر الخصوية.

وفي الخارج، في شرفة مغروس فيها شجر "الأوكالينوس" كان الدراويش يتأملون وهم جالسون القرفصاء أو جالسون على الرخام يرتدون عبايات طويلة سوداء وقلنسوة كبيرة رمادية عليها شريط أبيض. كان قائدهم يسوسهم بزر قلنسوته الأخضر والمنشأة طاردة الذباب تشير بعيداً فوق مخزن البارود الإنجليزي، وفوق قباب الموتى المستديرة المخططة الشائكة، وفوق النيل الذي ينساب بين المروج الخضراء وتوهج الأهرامات البرتقالي. إنها ثلاثة أشكال هندسية. كل هرم يلقى بظلاله المثلثة وكأنها معطف دائم يغطي القفا.

استدعاني إلى المغارة المقدسة ضجيج ورشة. كان الدراويش يبسطون أذرعهم ويدورون حول أنفسهم كالنحل، والسترات والتتورات الفضفاضة البيضاء تدور

مع حركة دورانهم. راحت عفوية صوفية متضرعة تكرر الوجه النحيل الذى كان يشاهد الدورة.

كان المُحرك المقدس يهتز ويصلصل. وتعمل الآن فى ورشة خراطة الصلب الكبيرة خمس عشرة مخرطة. تبرد الأرض. تصقل سطحها الوعر. وتثقب القلنسوات العالية الخالية من الزر الهواء الصلب. ويسيل عليها بين حين وآخر تضرع باكٍ كزيت يلف صرير الآلات الموسيقية العربية.

ويعلو صرير الفرقة الموسيقية المُحتشدة ذات الأسمال البالية المُجتمعة :

"فلنحاك إيقاع الكون!

علينا ميكنة الإنسان- ترس المجموعة الشمسية !"

توقفت مخرطة بشرية... اثنان... خمسة... يتصببون عرقاً. ويقبع هذا المنهك قريباً منى على الحصيرة خائر القوى. يذهب أشدهم جلدًا لأخذ البرانس من الزملاء المُسنين، ويسترونهم بمحبة، ثم يشرعون جميعاً فى الصلاة وأقدامهم مُتلاصقة.

حينئذٍ فقط رأيت قائدهم: إنه الوحيد الذى ظل على الحصيرة بينما كان الآخرون يدورون. كانت قلنسوته الرمادية على وجه بلون الرماد تنصت إلى الصلاة... ينهض... فينهضون. كانوا يتبعونه بأزيز طويل كعروس بحر فى ضباب نهر "التيمنز" الإنجليزي.

بغال صاحب الجلالة القطن

ينظر لفيف من العرب فى أسمالٍ باليةٍ ذات ألوان خضراء وصفراء وزرقاء إلى الصرير المألّم لمحاور وعجل كوبرى حديدى فى أثناء تشغيله، فحينما يدور ببطء يسمح بمرور أشعة السماء العالية وبغال مُلَطَّخة بالطين مشدودة على حبالٍ طويلةٍ مُحَكَّمة.

لفيف يمشى وهو نائم. يخطف الضوء أبصاره، ما زال جميعه مُدخناً وعفنًا فى قريته شيكولاتية اللون: أكواخ من الطمي مُنخفضة مُظلمة، أبقار وماعز صغير، كلاب ودجاج عفن، صياح الديكة زاهية الألوان وجاموس أسود يصوبُ قرونيه تجاه مشرق الشمس الخزفى البديع.

تنحصر القوارب فى حوض التثبيت المغلق قلقلة من نقل حمولة القطن الخام: تنن، وتتذمر، وتصرّ من الغضب وهى فى هذا الفخ الأوربى! ويخطوة متناقلة ورتيبة يتقدم أربعة بغال زنوج فى أسمالٍ بالية، وشبه عرايا. ينحنون ويحفرون فى الطين ويثبتونه، بلا هدف.

قاموا بمد الحبال لسحب الزورق الشراعى الهائل البعيد، وهو شبه غارق تحت ثقل حمولة من القطن المليونير التى تسحق أكياس البذور الحارة وسوف تنتج بالفعل تيل الخيوط القادمة أكثر بياضا، ولمعانا وطولا. أصدر زنجى صغير أوامره بالإبحار وهو يمسك بأسنانه قطعة من قصب السكر ويمتطى مقبض الدفة.

وراحت المراكب المحملة بالقطن على الشاطئ تحاصر مقبرة عربية صغيرة نزلت قبورها الرمادية ذات الشواهد والعمائم وسيوف الصبار لتغتسل فى مياه

النيل . . . وارتفع قرع نواقيس وغناء حزين مكتوم فى الجو الذى بدا كقطعة الصوف الساخنة.

قطارٌ يسير بالبُخار يتصاعد منه دخان ويحمل لافتة تحذير "احترس من القطار" ...
وأطفال نوى بشرة داكنة استعمرهم الذباب وأشعة الشمس العالية... يبخر دخان
القاطرة المستدير المتسع الصافى منثنة زرقاء بثمرتها الزرقاء، أى المؤذن، ونداؤه
الأزرق ينطلق نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب: الله أكبر.

هالة من الصقور السريعة مثل "كناسين مُجنحين" حقيقيين تترصد من أعلى جيفة
كلب تخفف رائحته العفنة حدة رائحة دخان فرن بُنى بحجارة من روث جمل تم تجفيفه
تحت أشعة الشمس.

لمسات مُتناحرة للمواد الدهنية الخصبة والزجاجية العاقرة

شبهوات حسية حادة ألهمت شفتى ومنخرى. وراحت عروقى التى تمددت وكست
عجلات سيارتى تحمل إلى متعة لمسات الإطارات المختلفة.

بدا الطريق دهيناً بفعل التربة السوداء مُلطخاً بالوحل ملآن قذراً ومُشبعاً
بالجراثيم. تتساقط جوانبه على القرية المُنبسطة، ذات المستنقعات العكرة والسولقى
الهزيلة، التى تضايقها الخيول النحيلة، والأبقار برونزية اللون، التى تتناثر كالزمرد فى
المراعى، وطيور أبى قردان الفاتنة، ومجموعات الحمام المُحلقة.

وبعنّف، ارتجفت بشرتى المُتشحمة بمياه النيل على حافة عالم جديد ملموس...
عالم جاف بأكمله، فهو إمّا زجاجى وإما معدنى: إنها الصحراء!

ولجتُ فى الرمال الخائقة التى تملأ الأفق. سقارة. وعلى ظهر الجحش استمتعت
يدأى المتوهجة برطوبة ظهر الحمار الصغير المُتصبب عرقاً تحت السرج. حرارة الجو
تضطرم. كماسة ثمينة تلالآت قطرة عرق فوق جبهة رفيقة سفري، التى بدت وكأنها
ملكة سبأ بين سائسى الحمير المتهامسين نوى الوجوه المُرهقة الضاربة إلى السواد.

عبو كركض الأطفال على حاشية لامتناحية من الرمال. هذه هى رقة ونعومة
الرمال العابرة.

تفكير الصحراء الرفيع

تُمثل الصحراء القلب الموحش ليااسة الأرض ومائها، بحوافر الجحوش الرشيقة الواهنة نحلّ بالطبع أكثر مشاعرها برودة وغموضاً. الرمال تحيا وتفكر ولكنها لا ترغب فى التحدث. رتيبة وغائبة وشاردة. لا تقول شيئاً ولا تعطى شيئاً للإنسان. تستقبلنا الرمال وهى صامته بعد أن حفرها تجعد أحد الدروب. صمت رهيب للسيراييوم تحت الأرض وقبورهِ الصخرية الجراتينية التى تضم "الثيران المقدسة" وقد غلفوها بعناية فائقة فى القار وأملاح النطرون والأعشاب العطرية والطين الذهبى والبراعم وأوراق البردى! وهذا خطأ، لأن الجشع والفضول البشرى استطاع أن يسلب ويبدد تناسقها الخالد.

كيف واتت اللصوص الجراءة والعضلات الفولاذية التى مكنتهم من رفع وشجّ أغطية تلك المقابر الشاسعة؟

لابد وأن خوار لعنة تلك الحيوانات الذاخرة بالحياة الصناعية صعبتهم جميعاً فى الرمال كالحارس الأمين تعرقل خطوات هروبهم الليلي.

ومن خلال سُمك الصحراء نشعر ونرى تصاعد الإرادة الصلبة كأشعة سوداء طويلة تطن وكأنها ديناو جبين وصدر أولئك الملوك والمحاربين والقضاة والتماسيح والثيران المقدسة. إنهم يعيشون حقاً فى ديمومة فعلية من خلال لوحات صوره المصنوعة من الذهب والفضة والنحاس والحجارة.

الهرم المتوهج ومساحة نضرة

تركنا تلك الكتبان الرملية وتلك المقابر الذاخرة بالحياة ونحن سكارى بسبب سعادة دنيوية مُتجددة واتجهنا إلى الطريق الرخو الطيني، كالذى يغادر فراشا جافا وزاهدا لينزلق في حوض مُعطر.

كانت رءوس الجمال المُغطاة بالوجل تطفو في هواء فترة الظهيرة، وبحمولتها الكبيرة من قصب السكر وأوراق الذرة تداعب سيارتنا بسخرية. ولم يظهر سوى خُفاف أكثر الجمال حمولة كغابات مُتماوجة تواصل المسير. وقد أظلمائى أحد الزنوج وهو يفترق الماء بالشادوف من إحدى الآبار، ووصلتُ وقد استبدى الظمأ إلى اللهب الأصفر الشاسع الذى يرتجف على وجه هرم الجيزة. مضطرم بأكمله، ولكنه كان ناضراً بأكمله بفراغ شاسع، ذلك الاضطراب المؤلف من ثلاث طُرُق تنتصب وتتلاقى فى القمة البراقة حتى تصل إلى الشمس.

كطقسٍ روحانى، قمتُ بزيارة قاعدته، التى يبلغ ارتفاع كل صخرة منها متراً، ثم انفصلتُ عنها. ظهر أبو الهول الضخم وذيله المُلتف وأقدامه المُنبسطة المصنوعة من القرميد تلقى ببساطٍ ضئيل من الظلال. فى إحدى تلك البقاع الظليلة تجمع أحد عشر شخصاً من العرب ومن ساسة الحمير أو المرشدين، وشكلوا بقعة يميل لونها إلى السواد حول دورق مياه وقليل من البصل وقطعة من الفطائر غير الناضجة.

مجموعة ثانية مُعتمدة تظهر فى سطوعٍ مضىء: إنها عائلة مصرية تتناول طعام الغداء فوق الرمال. شَفَّ النقب الأسود العذب فوق العيون السوداء الكحيلة. تعلو ياقة من الفرو عفا عليه الزمن على رداء من الحرير الأوروبى. وتحمل مربية أطفال من

الخرطوم طفلا بلون الكربون بين طيّات غلالة صلبة من الصوف الخام بلون يميل إلى
الأبيض تدثر جسدها وتحجب وجهها. وعندما نهضت محا ذيل ثوبها الصلب الثقيل
برصانة أثار أقدامها العارية من فوق الرمال. وتنهش الشمس ثنايا الملاة السوداء
للمخدومة التي تخفى أنفها أسفل يشمك أبيض. ونسمع وساس أساورها الذهبية.
وصو...صو... صوزقزقة عصفور الذُعرَة الرشيق الباريسي الذي يتراقص فوق
الجرانيت الخالد الخشن. وغازو... غازو... غازو هديل القُمرى والحمام فوق أنف أبي
الهلل المُهشم. وحا... حا... حا نهيق حمار في غابة بعيدة من النخيل.

هرم للأكل

أشعر بالجوع، سيتم تقديم الطعام خلال ساعة فى فندق "ميانا". فى تلك الأونة يشى الهرم الساخن بكل تدرجات الألوان: ذهبى عتيق، مخمل برتقالى، لهيب مُتجمد وردى اللون... إلخ. لا يبعث أى شعور بالحنين. لا خلود. لا يشير إلى شىء. لا يتسلط، بل يقدم نفسه كطعام على المائدة، أو بالأحرى فى هذه الصحراء المهيبة المعدة. عبق طعامه الشهى يتعرج ملتصقاً طريقه إلى منخارى. تتشقق قشرته تحت تأثير أتون انعكاسات الشمس العليمة الهائلة. طعام جيد الطهى. تلمظ لسانى فى فمى رغم أنفى. ليس عبثاً أن سَعَف النخيل البعيد يرسل من جديد تحيته المُبجلة، ومن فوق الكثبان الرملية التى تتحول بشكل ساحر إلى قباب من الحلاوة وفاكهة السفرجل المرصعة باللوز والجوز. السماء عذبة بيضاء كأفضل علبة علك، تلك التى سقطت فيها وفارقت الحياة الطفلة عاشقة أكثر حلوانى مصر عبقرية.

نسيت إفطار فندق "ميانا" فى ظل أبى الهول المتنامى وغفوت وأنا أمضغ قطعة شهية من الهرم. عندما استيقظت كانت الظلال قد زحفت فى الصحراء كجيش مُلتف بالظلام. بدا لى هرم الجيزة وكأنه مصنوع من بللورات الفستق. وأكلتُ منه المزيد أخذاً فى الاعتبار ما حدث عند عودتى إلى القاهرة، فعندما استدرتُ فى عَجالة رأيتُ الهرم يستعيد شكله من جديد بنفس طيفه القديم الحالم. كان يطفو على سطح سائل ذهبى ضارب إلى الاحمرار عند غروب يشبه غروب فيكتور هيجو. وعلى اليمين ذابت فسيلة ناصعة البياض مُزدهرة بجانب مُذنّة مع سَعَف نخلة شاهقة وكأنهما قطعتان من حلوى السلام التى تأخذ الأذهان فى ماء الشفق الفضى.

وعند منتصف الليل فتح نسيم النيل بلطفٍ نافذتى فى فندق سَميراميس . وفى
الفضاء كان البدر يستقر بخفة فوق أوراق ثمرة موز مُتفتحة.

ها ... ها ... ها إنه صراخ خفر الليل عندما ينادى بعضهم بعضاً . أكلتُ القمر
قبل أن يُسلب منى ، موقن بأن الشهية لها الغلبة دائماً ، وكم كنت مسحوراً بهذا
التسابق المبهج للحلويات العربية.

فى نزهة مع أمى عند المرفأ القديم

فى إحدى العصارى التى تميز شهر يناير فى مصر، البطيئة الناعمة الفاتنة الذهبية، ذهبتُ إلى زيارة الشاعر الإغريقى الشهير "كوستانتينو كفافى" الذى يفضل الإسكندرية مسقط رأسه على بلده أثينا النائية الشاردة.

كان الكاتب الصحفى الإيطالى الأملعى "كندارو" يحدثنى عنه بفصاحة بينما كنتُ أتجول وأقيمُ بواقع الشوق التاريخى الذى يربط ما بين روح شاعر وزُرقة المرفأ القديم نصف الدائرى الذى أضحى الآن مهجوراً، ولكن من المؤكد أنه يعج بسفنٍ ملكية فخمة خفية.

تلك كانت نزهة أمى المسائية المُفضلة، حيث كنتُ أرافقها وأنا فى السادسة عشر من عمري وأحاول أن أجعل خطواتى الحالة تتوافق مع خطواتها الحازمة المُتَعْجَلَة. كانت تبدو وكأنها تلاحق حزناً من أحزانها المؤلمة، بينما قد أسرنى لهيب الغروب كالتنويم المغناطيسى، فهو كخبير للحروب والبطولات كان يحاول ويحاول رسم مشاهد كل معارك السحب المُحتملة والفروسية الأرجوانية وطلقات أشعة نارية وانهيار قلاع من الذهب... ولملم جراً.

كانت تداهمنا روائح المذبح العفنة الحادة، وبيت فقير يميل إلى اللون البنفسجى يحاصره كوم من جلود الحيوانات المضرجة بالدماء وأكوام من القمامة وخوار البقر الغضوب. يذكر منخارى رائحة الموت المرعب الحاضر فى ذلك المشهد، مشهد الروائح القبيح فى أنحاء هذا المكان على اليسار، بين ظلال شبح حيوان كان يفزع أقدام المارة العرب الذين يرتدون التنورة والمداس الأسود ويسيرون بطول المياه

الرائعة. لم يعد لهذا المذبح أى وجود الآن، بل رصيف مُبلط واسع، تحميه كتل خرسانية، تسمح لنا بالوصول دون عناء إلى الأطلال الرومانية التى تبرز فى زُرقة البحر فى منطقة "لسان السلسلة".

ملوحة طائفة منعشة لذكريات مريرة. حفيف الهواء والزبد كانا يحرضان الطفل السباح على الغطس. كنا صورتين من الأبنوس تقفان مقابل سماء منيرة بالسحب البيضاء على ظفر وردى لأحد أذرع الميناء القديم بينما تدفع اليد الأخرى قلعة قايتباى إلى أعالي البحر، ذلك المبنى القديم الواهن المائل للبياض الذى لا بد وأن عين "كفافي" الفاحصة لم تره، حيث إن الفنار القديم أحد عجائب الدنيا السبع يرتفع مكانه.

كانت أمى تقول: فلنعد أدرأجنا إلى البيت يا "توم".

وأنا الآن أقول لرفيقى: فلنعد أدرأجنا. ويتحول فى الحال الغروب الغامض فى مذبح تلك الأيام الخوالى الكبير إلى مسخ من أحشاء تميل إلى الاحمرار ذات بخار يتساقط فوق حديقة موز أوراقها من الزمرد واللآلى قد صارت رمادا.

عند تقاطع "الكركون" أقترب من غدو ورواح الحارس الإنجليزى الهندسى ودرجات سلم نادى محمد على التى ربما لاحظتها أنا نفسى عندما كنتُ طفلا، بل ومازلتُ مُدرِّكا لقضبان شرقية منزل أبى. ورحت أتساءل: هل ما أسمعُه من ضجيج المدرسة والديكة هو ضجيج اليوم أم الماضى؟ وعلى عتبة منزل الشاعر "كفافي" تباركنا نخلة أعلى من المئذنة والمؤذن اللذين ابتلعتهما ظلمة الليل.

الشاعر اليونانى المصرى "كفافى"

ها هو... رأس صغير رمادى ذو ذكاء عذب، وأذرع هزيلة تجذف خارج قوقعة
الشعر اليونانى الرومانى الضخمة ذات الصبغة المثقفة، خميل أحمر قان وأطر صور
تمطر قرونا منسحقة كالرماد.

كان الخادم السودانى الذى يقدم لى على "الصينية" الويسكى بالصودا مع مزة
الجبين اليونانى التقليدى يرتدى سروالا قصيرا بنفس اللون الأحمر القانى ومطرزاً
باللون الذهبى. بينما كنا نلوك نحن - الاثنين - المزة، هو كراع ساذج بسيط وأنا
كقائد مركبة فى سباق بدأنا نقاشا حول شعر المستقبل.

امتدح كفافى اتجاه الحركة المستقبلية، وصرح بأن " تأويلها الرمزى للمراحل
التاريخية التى طبقت على الحياة البائسة المعتادة" لهو ظاهرة صحية.

وأضاف: يجب صياغة هذا التأويل فى الشعر الحر، دون اللجوء إلى الأوزان
الشعرية القديمة أو القافية.

وأجبت به بأن من الضرورى تجاوز الشعر الحر والوصول بسلاسة إلى تزامن
الكلمات التى تعبر بشكل أفضل عن حضارتنا العظيمة الميكانيكية السريعة.

تصاعد الحوار. شارك فيه معجبون كثيرون. والكل يكيل الإطراء والثناء للشاعر
الأصيل الذى يستضيفنا. ودلت الأمثلة على أن الشاعر اليونانى "بلامس" - نظير
"كفافى" ومنافسه - يذكر "فيكتور هوجو" لغزارة لغته، و"لامارتين" لنزعته العاطفية،
و "مالاكاسيس" فهو مزيج من "موسىيه" و"سيللى برودهوم"، أما "بورفيراس"

أصغر الشعراء اليونانيين فهو تلخيص لكل من "بودليير" و "فيرلان"، وتذكرنا قصائد "جريباس" الشعرية بقصائد "جوزيه ماريا دو هرديا".

بدا رب المنزل متأثراً وقدم لى مزة الجبن من جديد، وشرح لى رغبته فى أن ينحت بشكل أدبى اللغة اليونانية الشعبية فى أبيات شعره الحر، تلك اللغة التى يُجَلِّها عالم اللغويات الشهير "بسشاريس".

إنها تتمتع بحيوية قوية فى مظهرها الخارجى وذلك فى مقابل القواعد الكلاسيكية التقليدية التى بسبب تمسكها بالماضى بشكل صارم آل مصيرها إلى الفناء على أرفف المكتبات فحسب.

اللغة الشعبية اليونانية لغة ديناميكية، قادرة على استيعاب كل المفردات الأجنبية الضرورية. خاصة المفردات الإيطالية.

أُنشد "كفافى" بعض أبيات الشعر حيث تندمج وتتناغم كالموسيقى مفردات إيطالية كمستحدثات لازمة على اللغة مثل: باب - قبعة - جوارب - قفاز - مهنة، وأثبت لى كيف تشذ كلمات تساويها إذا كانت بلغات أخرى كالإنجليزية أو الفرنسية أو الإسبانية.

تحدثنا عن النزعة الإبنسية عند كاتبى المسرح "إ" و "نيرفانا"، أما "سبيروميلاس" فهو ينتهج تقريبا فى "المشهد الحر" نهج حركة "المستقبلية"، حيث قامت فرقة "ماريا كوتويلوس" - والتى يطلقون عليها "لابوس دى أتيئا" - بتمثيل أعمال مسرح الطليعة الفرنسى باقتدار، وذلك بشهادة صحيفة "ليفترين فيما" وهى عظمى الصحف اليومية اليونانية.

وعندما قرر "كفافى" أخيراً، بعد أن رجونه جميعاً، أن يلقى على مسامعنا إحدى قصائده الشعرية التى لم تنشر بعد، تطوع "كترارو" بشرح عنوانها الغامض: "الإله يجفو ويتخلى عن أنطونيو".

فى الواقع إنه عند قراءة "بلوتارك" نجد أنه فى الوقت الذى استسلم فيه أنطونيو لشهواته مع كليوباترة فى الإسكندرية، تنهى إلى السمع ذات ليلة كورس شجى من

أصوات الماندولين والمزمار وكان يبتعد فى اتجاه البحر. هرع الجميع إلى شاطئ المرفأ القديم وهم منجذبون ولكنهم لم يروا شيئاً. كان ديونيزو "حامى أنطونيو" قد تخلص منه.

ألقى "كفافى" أبيات شعره الحر بتؤدة يصحبها إيماء يزخرف بدقة المكان.

وبين حين وآخر كانت يده تتهاوى تحت وطأة ثقل موسيقى الكلمات الواهن، بينما كان "كترارو" يترجم الشعر.

استأذنت من الشاعر بعد مرور ساعة، وهرعت فى سيارة لأستمتع بالظلال العطرة لأشجار الطلح فى حديقة "أنطونياس".

بدر مُكتمل. بلابل. وصف من أشجار "الكاميروس" العالية يسكب لبناً أثيريا فى الفضاء الخلاب. من حين إلى آخر أسمع صخب أصوات وضجيج ودوى حاد: إنهم يهدمون الفيلا القديمة المفعمة بالذكريات لتشبيد أخرى غاية فى الحداثة لإقامة الملوك الأوروبيين عند زيارتهم للبلاد.

وأسمع دوى عربات الكاروه المكتظة بالرخام القديم. وفى بعض الأحيان يستدعى انهيار الانقاض الجنازى صوت القنابل الماكن.

وتمتلئ ترعة المحمودية بسائل فضى من الحنين كأبيات الشعر الحديث العتيق لشاعر الإسكندرية اليونانى: قسطنطينو كفافى.

الموت المقهور وحركة "مع الموتى"

أحاول أن أحدد المظاهر النفسية لمصر القديمة والحديثة من خلال دراسة شعبها عندما يتحرك غير مكترث بين المباني المعمارية والتماثيل والمدافن المقدسة الثمينة.

كان دليلى فى متحف الإسكندرية الشاعر "نيلسون موربورجو" رائد الحركة المستقبلية فى مصر. إننا بمفردنا مع الماضى وسط السكون الذى يعبق برائحة الصوف الحار والنطرون والأعشاب العطرية. يحطم الصمت دوى أصوات وضحكات ووقع أقدام مضطربة. إنها مجموعة من التلميذات: عيون وملابس وأوشحة وخمارات سوداء، ولكن راحت الأيادى البيضاء كزهرة الكاميليا تتحسس وتتحسس بخبث ظهر الثور أبيض الضخم الذى يقصدونه كرمز للخصوبة والنماء. وكما يشرب الناس ماء النيل بروحانية، كانت كل فتاة تتظاهر أو تعتقد حقا فى مقدرة تلك الحجارة المقدسة على أن تهب الحياة.

كان الإغريق والرومان يهتمون قليلا بتلك المشكلة وكانوا عادة يهجرون الأطفال، أما قدماء المصريين فكانوا على العكس منهم يزدرون ويكرهون النساء العاقرات. لقد استقر بالفعل فى الأذهان أن الاحتكاك بأبى الهول يمنح النساء عجينة الخصوبة المضمونة. كان حب الحياة هذا يمزق الموت نفسه أسفل ثقل المدافن الصخرية الحصينة.

كان كبارياء الملوك لايزال يحكم شعبا من المومياوات أو حشدا من الحياة المتجمدة فى كهوف الأهرامات الفسيحة.

وبرغبة إنسانية عارمة فى التآزر بقوة الحب والمواخاة وقبل كل ذلك برغبة
الاستخفاف بالموت تم تشكيل جمعيات "مع الموتى"! كانوا فى غاية السعادة لأنهم
استمتعوا بحياة كاملة معا وكانوا يرغبون فى أن تمتد داخل مملكة الموت المهزوم.
قبل تخليد الجسد كانوا يقمطونه فى لفائف يملؤها الملح وكانوا يمدونه بأنواع من
اللحوم المنتقاة بناء على طبيعتها القابلة للصب.
كانوا يقدسون ويرفعون بالفعل إلى مصاف الآلهة الثور الدءوب الصالح للأكل،
والتمساح المتوحش الذى يخشاه الناس.

برج حمام من أحذية القافلة

تسلطت على فكرة الخلود وصاحبتي بينما كنتُ أقوم بزيارة جامعة "الأزهر". تحيط الأروقة فناء كبيراً. وفي نهايتها المسجد الذى يتوه فى غبار الشمس العالية، وقبة ومئذنة تمنحان الحصور الموجود أسفله ظلالاً نضرة. جو من حشود النحل أسفل أقواس الأروقة المتعددة. حلقات علم من الدارسين زهاء العشرين.

كل مجموعة تضم حوالى ثلاثين تلميذاً. من كل الأعمار. طرايش وعمائم حمراء وبيضاء. ينصت التلاميذ وهم جالسون القرقصاء حول مقعد المعلم الذى يجلس عليه مربع الساقين، ويتحدث وهو يهز جذعه فى حركة تماوجية. يحاكي التلاميذ اهتزازهم ومشدوهم فى حالة روحانية إثر صوته الأنفى الرخيم وهو يفسر القرآن الخالد. حلقات متحدة المركز من التهامس والصمت حول الحجر الرزين الذى يتساقط من أن إلى آخر.

تركذ رائحة الحلاوة فى المكان، وهى لون من الطعام الملين لتلك الأجساد التى تعشق استمرارية بذل الجهد المنتظم وتجهل روح المغامرة.

عند الخروج من جامعة "الأزهر" نلاحظ وجود ما يشبه برج حمام خشبى، وهو يحوى فى عيونه أحذية ومداسات التلاميذ.

يخضب يصبغ تراب الحنين كل شوارع أفريقيا وآسيا ويتجاور مع المحراب المقدس الكبير القريب المتجه إلى "مكة". إنها دراما مُختزلة لأمر بكاء تلخص الإسلام الهائل.

(٢٠)

مدافع القلعة الإنجليزية

عندما أرفع رأسي في السيارة السريعة، أرى القلعة ذات الأبراج وبلونها
الصحراوي تحاول أن تخرق بأطراف مآذنها قصص طنين الطيارين الإنجليز
المُضجر، الذين يوجهون باستمرار مدافعهم المستعدة نحو صمت الحشود
المسلمة الحزين.

يبدو محفورا في الأذنان موكب الإبل المוגل في القدم، وهو يمر ببطء متأرجحا
وينقل الحجارة لتشيد مباني الأوربيين.

عندما سمعنا نغير السيارة هرعنا بين المساجد المثلومة، وحركت سرعتنا بالكاد
حبرة النساء العربيات السوداء اللواتي يتكسبن أمام السجن، ويتجلدن في انتظار
ميعاد زيارة أحبائهن الذين سجنهم الأجني.

النيل، تنعس الذهبيات أو المنازل الطافية بطول النهر وهي ثابتة وقد لوحتها
أشعة الشمس أسفل النخيل الذي أسكره النعاس . تلك المعوجة. وهذا
النخيل المتعانق كي لا يسقط. حديقة "الجزيرة" الجديدة - وهي مسطح هندسي
أخضر مستقبلي - تكعيبي من الأشجار التي تم قصها بأشكال كروية مخروطية
وتكعيبية - تحمل في مجراها الفيروزي المصقول كل النضارة التي تحلم بها
الصحراء المتحركة.

زرقة لامعة خلاصة لسماء صافية. ما الذي تأمل في حصاده تلك الأشعة العالية
المقوسة بين النخيل الشارد وشجر السالستين المتضرع؟

هل تستطيع القومية المصرية قريبا أن تحقق حلم الاستقلال التام وتنضم إلى
عصبة الأمم المتحدة كحليف حر وصديق لإنجلترا سيدها أعالي النيل وضة قناة
السويس؟

يالها من متناقضات!

ولكن ألا ينسجم عواء ابن أوى الذى يعيش فى الصحراء وخفر المنازل مع الخلود
الليلى للنيل المتدفق؟

فن المسرح بلا مسرح

وبالمثل فإن هذا التباين النابض بالحياة للصور والأفكار والألوان والإيقاعات والأصوات والمشاعر كان يتحتم منذ فترة أن يتجمع بشكل أدبى فوق خشبة المسرح ويكون مسرحاً مصرياً. ولكن هذا لم يحدث بعد. إنه بالكاد يبرز.

بالإضافة إلى زخم المسرح الأوربي المترجم إلى العربية، توجد أعمال مسرحية ليوسف وهبى ومحمد تيمور وأنطوان يزبك إبراهيم .

فى مارس عام ١٩٢٣م أسس يوسف وهبى فرقة رمسيس التى جال بها كلاً من مصر وسوريا وتونس والجزائر بنجاح، وهو رجل رأسمالى ماهر و مدير فرقة مسرحية وممثل من الطراز الأول.

أما المسرح التاريخى فله شاعره: إنه شوقى الشاعر المعروف الذى كتب مسرحية "كيلوياترة" الشهيرة والممثلة فاطمة رشدى. هذه الفنانة الشابة الجميلة الذكية الحساسة التى تمنح بولع للجمهور العربى - بالإضافة إلى تموجات نحيبها الواهن على جثمان أنطونيو - ظهرها عارياً رشيقة شهوانياً. ثورة حقيقية فى العادات الإسلامية.

أفضل الممثلين هم زكى طليمات وعزيز عيد ويوسف وهبى وجورج عيد. ويتألق بين الجميع نجيب الريحاني وهو الذى أبدع مشاهد متفردة، ورمزى وعبد الرحمن رشدى وإبراهيم المصرى ومحمود كامل وإسماعيل صبرى وعلى لبيب.

فيحاول هؤلاء الممثلون خلق مسرح قومي خالص باللهجة المصرية مُبتعدين عن اللغة العربية الفصحى.

كما أن هناك جهوداً مخطئة مثل محاولات زكي طليمات الذي يحلم بمسرح تاريخي يقدمه للجمهور الباريسي وكذلك تقديم نمط على شاكلة شخصية "كشكش بيه" الذي يجسد السذاجة الشعبية الساخرة.

وينفس الصيفة الكاريكاتيرية. ظهر الممثل والمؤلف على الكسار.

تزامن إفريقى لطيار زنجى

أين أنا؟ فى أعلى الصعيد؟ داخل تونس؟ لا... فى الواقع إن هذه السيارة تقطع السهل التونسى، ولكنها تفصل فى نفس الوقت أسوان عن النيل الذى يحمل على صفحته جزيرة "قيلة" التى تشبه ثمرة أناناس ضخمة؛ وأرى الآن أشجار الرمان والموز والنخيل وقد ازدادت كثافة جذوعها بسرعة وأوراقها الملفوفة كالخيوط حول نفسها أسفل العجلات التى تنهب الطريق مقيدة وطليلة فى ذات الوقت مُسرعة فى السهل التونسى الشاسع وتخرجه عن سكونه بشكل مدهش. تقذف بضراوة الرياح المُسيطرة فى وجهى تائباً عنيفا اعتراضاً على سرعتنا، حيث وصل ناقل السرعة إلى الدرجة الرابعة. انطلقت مزارع الكروم متجهة نحو قوس الأفق بألوانها الصفراء والخضراء وتبدو كأنها تحمل على ذروتها مثلث طموح لجمل يجر خلفه بمهابة محراث صغير يحاكي لعبة أطفال مُحطمة. كما يرسم الآن بخطمه السامق قبة السماء. سياج كثيف من نبات لم يخضر بعد.

إنه يشبه أسلاكاً شائكة يعلوها الصدا يحمى من هجمات قرصنة الرياح القرى التى يحيا فيها حياة بُنية حافلة كل من الجاموس والحمير والكلاب والديكة وهم غارقون فى الوحل.

ها هو السهل يتمخض أماناً، بعد أن انتفخ رويدا رويدا، عن مدينة "زغوان" البيضاء التى تحيطها أسوار رشيقة طليقة مُنمقة. قباب بيضاوية بخطوط متعامدة تشبه فاكهة صافية غنية بالعصارة تتناوب برقّة مع أبراج المآذن المربعة الصارمة التى تثقلها الحرب أكثر من الصلاة. وعبر الشرفات الصغيرة تبدو المدينة لى وكأنها معرض

هائل لعينات من العلب الكبيرة الفارغة وأغطيتهما الثقيلة المقلوبة. شرفات فضية مُرتبة.
أفنية ضاربة إلى الزرقة. أزقة مخملية بلون النيل.

أهيمن على الهندسة السافرة لأحشاء الصحراء التي تتنوع بين مكعبات
وكرويات ومثلثات وأشكال مخروطية للمثانة والعضلات والأعصاب المُتكلسة. يندفع
وميض عال من الذهب الأخضر فوق فتحات الأسوار التي يبدو منها تدفق اللبن الأزرق
الساخن. أفعم الجو المُستعر أقدامى وظهري بالرصاص والصوف الحار بينما أتابع
ببطء السير في أعماق أتون محرقة الرزاق الملتوى. تتقدم صرة سوداء من القماش.
لعلها امرأة. لمحتني بالتأكيد بينما تمر في التراب دون ضجيج عبر ثقب صغير
لستارها الدامس.

وعلى اليسار - ويشكل مسرحى - كومة من عربى أو عرب يتدثرون بجلابيب من
جلد الماعز ويدهامهم النعاس وهم يقومون بالطهى: عظام اللحم المسلوق، والكسكسى،
والقول، والتجعد، والشعر، والعرق، والروث. تم تقديم الطعام على أكمل وجه فى أحد
تجاويف الأسوار الساحرة.

وتقذف فوهة بركان الشمس المقلوبة بحمم قاتلة تتبعنى داخل أحد المقاهى
الضيقة: فبدلاً من الانتعاش المنشود استقبل منخارى روائح كريهة وذباب وغثيان من
العفونة والزيت الزنخ والقرفة والفانيليا والطلح والخروب والحمص والعرق والبخور
والنشادر والينسون والياسمين وقناة المجارى.

ولحسن الحظ، فإن قدحاً من الأعشاب شحم عقلى المتوقد بين شطف
الأقداح وصوت تونسى - فرنسى يقص ما يلى: "تدور أحداث الجزء الأول من
الفيلم الذى أقوم بتصويره فى الذهبية على صفحة النيل الدهنى، والجزء الثانى بين
جبلين من بالات القطن الذى يتلظى تحت أشعة شمس أغسطس الحارقة، والجزء
الثالث فى القسطنطينية. إنها مدينة عريقة وصاخبة. لدينا عمل كثير من أجل
الصوت الرنان!"

كان يؤظنا كل صباح صخب مغتبط من الأبقار والديكة والحمير والماعز
والثيران. فندق كبير على قمة جبل أعلى نُزل البو الفقيرة التي تضم أفنيتهما الواسعة

تبنا وقمامة وإبلا وأوزا وحيوانات التيس وحماما. وتسيطر طيور اللقلق الأنيقة على طوب الأسطح المنخفضة، الأحمر الذى يبدو وكأنه يمضغ ويعتصر ركب الحيوانات والفلاحين والرجال نوى الأسماك البالية عند مرورهم بلامبالاة. المشهد رائع وينبئ عن كل شيء. سنحوذ على تأثير سينمائى قوى مع هذا الحشد من المنازل الفقيرة المعوجة المُلطخة بالزرقة والتي تنحرف يسارا حتى إن الجسر المستدير الذى يعلو الأقواس الرقيقة يجعلها تتماسك بالكاد.

وسيدور المشهد الرئيسى داخل سيارة تنطلق بأقصى سرعة فوق هذا الجسر الذى يتجاوز وادى "روميل" العميق مُبددة السحب البنفسجية المتراخية والمتصاعدة من المنازل التى لونها الفرشاة باللون الأزرق".

يغمغم طيار زنجى قائلا: "هنا يموت المرء". زغوان هى مدينة الموت البطيء فى الجير الحى! سنئمت من الطهى فى الزيت كالحلوى المقلية. لابد من الطيران تجاه الواحات. سافرتُ منذ فجر الأمس بطائرتى السياحية الصغيرة من القاهرة. حلقتُ فوق طرابلس وتونس واتجهتُ صوب "القنطرة". يا لها من إيماءات تحدث فى الجوا! موجتان هائلتان من غبار الجرانيت والرمل تأرجحتا أمامى فى السماء فى أثناء نصف ساعة من التحليق، يبدو بعدها أنهما حولاً سريعاً مجراهما المضطرب إلى حجارة. كانتا تحاولان منعى من الولوج فى الصحراء! ولكن هرقل اخترق من أجلى -بالتأكيد من أجلى - هذا الحائط بركة قدمه الأسطورية. عبرتُ المنفذ على ارتفاع مائة متر بينما كانت تحتشد فيه عشرة آلاف نخلة، مما أنعش سريعاً حركة سعفهم الدوارة وهى تتوق إلى الهروب من رياح "سيمون" الحارة وتتشبث كلتا يديها بخيط مياه الوادى الأبوى الذى يرشدها...

"وفى طريقى نحو "بسكرة" حلقت فوق مواكب عظيمة من المزارعين من الببو الذين يذهبون للعمل فى أرض الآخرين ليتمكنوا بعد ذلك من العمل فى أراضيهم. تماوج الإبل المثقلة بالخيام وأوانى الطهى والأطفال. وعلى سنام أعلى الإبل تهتز النساء الثريات أسفل مظلات من الحرير القرمزى: تحمل كل منهن فى السرج بجانبها دجاجتها البيضاء المفضلة أو كلبها الأبيض الأزغب الأمين النائم. وتماثل صغيرة من البرونز الأسود فوق قواعد فخمة تسير. تظهر بين طيات الصحراء قطعان

من النعاج البيضاء موسومة رءوسها جميعا باللون الأحمر. ويحثا دائما عن مكان بارد وجدت أخيرا وادى "بوسعادة" ذى البساتين الزمردية الذى يقع بين أسوار ضخمة من الجير البرتقالى. هبطت بالطائرة أمام فندق "القايض" وقت غروب تلفه الرمال الوردية الحريرية. كان الفندق يكتظ بالسائحين، وفى الواحة لم أجد راحة النوم أسفل الخيمة العربية البنية المخططة باللون القرمزى، بسبب عدم وجود فتاة جزائرية جميلة بجوارى.

دون وجود أى جميلة جزائرية بجوارنا. تتكى النجوم الضخمة والهلل بثقلهم على قمة النخيل. ويتصارع النعاس ضد عواء الكلاب الشرس وطنين الحشرات والطيور الليلية التى تتالم وتقرص لحاء الأشجار. ما إن غاب القمر خلف الكتبان الرملية إلا واقتحمت ملذات الجنة الواحة بنسيم شجى يحرك سعف النخيل الكثيف الذى ينهمك كله فى تقبيل بعضه بعضاً ويعاود التقبيل بشهوانية وهو ينشر حفيفا موسيقيا متعددًا رخيما وتساقط أمطار وقرقعة وهمية تنتشر بسرعة. أهو تزحلق بحرى ما أراه؟ أهى أمطار صامته ويرد؟ تزحلق بحرى؟ على الرغم من المشقة التى عانيتها فإن قلبى الذى ترقق سهر وكأنه الجزيرة الوحيدة لهذا المحيط اللامتناهى من الأوراق السعيدة. رحلت مجدداً مُحلقاً بين هتاف وأشعة الشمس الحادة المائلة كعش طيور حمراء. وعلى شفاه معدن الطائرة كان الفجر بمثابة "آيس كريم" بالفراولة والفانيليا.

منحتنى قصة الطيار الزنجى رغبة عارمة فى الخروج إلى الفضاء. وعلى العكس من ذلك كانت مدينة زغوان منغلقة بسبب الجو الخانق أكثر من أى وقت مضى: وقادنى زقاق إلى خارج الأسوار. فى خضرة المراعى يرقد خليط من قطعان المقابر والنعاج. موسيقى شجية وحجارة ودماء ونخاع وعظام ووبر أغنام. توافق كامل ومُمتد. إنه الخلود.

يحث سير السيارة التى تقلنى خارج زغوان بإيقاعها الرخو على الانطلاق المحموم الداعر لحزام أسوار المدينة المزدانة. وفجأة يختفى خلف الأسوار محراب المنازل رباعى الشكل، فالمنازل تشتاق لتتحى طلقات النجوم المتقدمة وأشعتها الفضية.

فى المساء الصافى المتفائل، وتحت الأسوار البعيدة تتساقط عثرة عطرة لجموعة
مقابر تشبه الياسمين وزهور العسل انتزعتها الرياح فى حديقة بلون السماء،
مقابر أخرى مُبعثرة، إنها تبدو لى وكأنها منتجات ألبان نوق صافٍ مُعرض
لنسيم الليل من أجل الحفاظ عليه بصورة أفضل.

المؤلف فى سطور:

فيليبو مارينتى

ولد فى ٢٢ ديسمبر ١٨٧٦م وتوفى فى ٢ ديسمبر ١٩٩٤م، كان شاعرا وأديبا ورئيس تحرير وهو من أوجه الحركة المستقبلية (Futurismo) فى الفن والموسيقى والأدب أوائل القرن العشرين وتميزت بالدعوة إلى طرح التقليد جانبا ومحاولة التعبير عن الطاقة الدينامية المميزة لحياتنا المعاصر.

ولد إيميليو كارلو مارينتى لأسرة إيطالية فى الإسكندرية بمصر، حيث تربى ودرس فيها، حبه للأدب تزامن مع دراسته، فى سن السابعة عشر أنشأ مجلته المدرسية الأولى "ورق البردى Payprus"، هدته المدرسة اليسوعية بالفصل منها لأنه جلب رواية اعتبرتها "فاضحة" لإيميل زولا.

أرسلته أسرته إلى باريس، فرنسا، حيث تخرج وحصل على البكالوريوس فى ١٨٩٣م، انضم إلى كلية القانون بجامعة بافيا مع شقيقه الأكبر "ليون".

الترجمة في سطور:

مها محمد عبد العزيز

مدرس اللغويات والترجمة بقسم اللغة الإيطالية – كلية الألسن جامعة عين شمس.

المراجعة في سطور:

سهيمة سليم صالح

أستاذ اللغويات والترجمة بقسم اللغة الإيطالية – كلية الآلسن جامعة عين شمس.

التصحيح اللغوى: رجب عبد الوهاب

الإشراف الفنى: حسن كامل

